الفصل الثاني عشر

الاتجاهات الإنسانية والنقدية

« تألمت لأوضاع الفلاحين فى القرية . وكنت أفكر كثيراً فى أمرهم وفى الظواهر الاجتماعية والغايات الكبرى التى خلق الإنسان من أجلها . . وكنت لا أكف عن الصلاة والدعاء لهؤلاء التعساء . وسعيت فى خدمتهم . . » .

« تحمست للدعوة لجمعية تعاونية وجمع القمامة من المسجد . وسعيت فى مساعدة الضعفاء فى حاجاتهم . وأدرت المضخة لأملأ الحوض للماشية ، حتى تشرب فى غيبة الناس » .

« كنت أجالس الفلاحين ولا أحاول أن أزهو عليهم . . وحاولت نصحهم فى أمور معيشتهم ، وخاصة فيما يتصل بالإسراف فى تعاطى الكيفات » .

« كان يحز فى نفسى أن الخدم يعملون ليل نهار دون ترفيه أو معاملة طيبة . وانبريت للدفاع عن الخادم فى عدة مواقف ، كما منحته المال من مصروفى الخاص » .

obeikandl.com

« حاولت الاشتراك فى معركة القنال فنحى والدى . . » .

« اشتركت مع بعض الزملاء فى نادٍ . . فكنا نقدم بعض الخدمات لفقراء الحى » .

« وجدت أن مسجد البلدة غير صالح ، فأرسلت خطاباً إلى وزير الصحة أقول فيه إن المسجد لا يصلح من الناحية الصحية . . وكنت أرمى إلى أن تقوم الأوقاف بإصلاح المسجد فأكون المتسبب فى ذلك ، ولكننى فوجئت بإغلاقه نتيجة لخطابى ، واضطررت إلى تأجيل سفرى للبلدة ، حتى لا أظهر بين أهلها بمظهر العاجز » .

« . . ناصبنا العمدة العداء ، فقد كان طاغياً متسلطاً ينكل بالضعفاء من أهل القرية . . وأخذنا نرفع الشكاوى ضده إلى الجهات المختصة باسم المظلومين ، ونحرض على عدم طاعته ، ولا نقف لتحيته إذا مرّ بنا كما يفعل معظم أهل القرية . . واستمر سلوكنا هذا رغم نصح الآباء وتوجيههم ورغم تعرضنا للأخطار بسببه . وكان تشجيع معظم الأهالى — فى الخفاء — لأعمالنا ، وامتداحهم شجاعتنا ، وإحساسنا بأنا رجال من طراز آخر غير هذا الذى يرضى العسف والظلم . . من الدواعى القوية لنا فى هذا السلوك » .

(ملحوظة : المراهق وبعض زملائه فى هذا المثل الأخير من أقارب العمدة . بل كانوا يكنون مشاعر الحب لابنته) .

هذه وغيرها أمثلة لاتجاهات فى المراهقة نحو الخير ، والعمل الصالح ، والمشاركة الوجدانية للضعفاء والمتألمين ، والشهامة والفروسية ، والثورة على المظالم والأخطاء ، والرغبة فى الإصلاح وتغيير مجرى الأمور !

ولا شك أن المراهقين لا ينفردون بعدم الرضى عن الأخطاء والمظالم فى المجتمع ، فإن من بين الكبار الراشدين كثيرين ممن لا يرضون عنها . . ولكن خبرة المراهقين الفجة الناقصة وعدم إلمامهم بالصعوبات العملية التى تعترض الإصلاح والتعديل ، تجعلهم يعتقدون فى إمكان تغيير وجه المجتمع بطريق الطفرة ، دون التدرج ودون أخذ الأمور بالرفق كما يفعل الكبار ! . . ولذلك يلجأ المراهقون أحياناً إلى العنف أو إلى المحاولات الخيالية فى سبيل الوصول إلى أهدافهم . وقد يدفعهم الإصرار على رأيهم واستمساكهم بمقيدتهم ، إلى التضحيات الجسيمة وتحمل الأذى والاضطهاد وإغضاب أقرب الناس إليهم . . . أما المثل الواضح على ذلك ، فقد قصه أحد المراهقين — فيما تقدم — عن اشتراكه وزملائه فى مقاومة سلطان العمدة فى القرية . وكان بعض هؤلاء الزملاء من أقارب المراهق ومن أقارب العمدة فى الوقت نفسه . وقد فعلوا ذلك رغم هذه القرابة ورغم معارضة آبائهم ، بل رغم عاطفة الحب التى حملها بعضهم لابنة العمدة ! !

وليست كل محاولات المراهقين فى النقد والإصلاح ، نتيجة خالصة لإيمان بالمثل العليا وبالقيم الإنسانية . فالواقع أن كثيراً من هذه المحاولات — رغم مظهرها الخارجى — متأثر لدرجة كبيرة ، بافتقاد المراهق التقدير

الاجتماعى ، وبإحجام مجتمعاته عن الاعتراف بشأنه ، أو اعتراضها على توليته مكانة بارزة فيها . . ولذلك يسعى كثير من المراهقين إلى الاشتهار والبروز عن طريق السلوك الذى ينحو إلى المخالفة ، أو عن طريق الظهور بمظهر بطولى يدللون به على أنهم لا ينقصوا عن الرجال — إن لم يزيدوا عنهم — فى إحراز صفات النخوة والشهامة والفروسية ! . . وقد وجدنا فى الدراسة الحالية ، أن الثورة على الأوضاع الاجتماعية ومحاولة التغيير فيها ، تزداد زيادة واضحة فى حالات المراهقة غير المتوافقة ، وخاصة الحالات التى حرم أصحابها التقدير والمعاملة الكريمة فى الأسرة والمواطن الأخرى .

ومن أمثلة الاتجاهات الاجتماعية التى تأثرت بالدوافع الذاتية الخاصة ، أن أحد المراهقين كتب لوزير الصحة بشأن إصلاح مسجد القرية ، فكان هدفه من ذلك — على حد قوله — أن يكون هو المتسبب فى هذا الإصلاح! وقد أوضح مراهق آخر أنه أراد أن يأتى شيئاً جديداً لم يسبقه إليه آخر فى أسرته ، حين قام بمحاولة لتكوين جمعية تعاونية من بين أفرادها . بل لقد لجأ مراهق ثالث إلى التدين الشديد ، فى أسرة اتجهت بقيمها عكس ذلك ، لمجرد المخالفة وإثبات ذاتيته فى الأسرة ! أما المراهقون الذين ناصبوا العمدة العداء ، فقد وصفوا أنفسهم بأنهم « رجال من طراز آخر غير هذا الذى يرضى بالعسف والظلم » . . . وهكذا كانت اتجاهات هؤلاء المراهقين وسيلة لفرض أنفسهم على مجتمعاتهم ، ولتعويض إحساساتهم بالتخلف والنقص أحياناً .

ومما يمكن أن تفسر به مشاركة بعض المراهقين الوجدانية للضعفاء والمتألمين وتأثرهم الشديد لصور البؤس والشقاء ، أن هذه المشاعر التي أبدوها نحو الآخرين هي الصدى لإحساسهم الداخلي بالتعاسة والحرمان . فكأنما يجانس هؤلاء المراهقون — لا شعورياً — بين أنفسهم وبين المهزومين المغلوبين على أمرهم في المجتمع . . من « الضعفاء » و« التعساء » و « الفقراء » و « المظلومين » و « الخدم » الخ ، باستخدام نفس الألفاظ التي وردت في عبارات المراهقين . . ويعلل هذا أيضاً إقبال بعض المراهقين على قراءة المأساة وقصص البؤساء والمذبين ، على اختلاف أنواعهم . . . ومما له مغزاه الواضح أن أغلب المراهقين في هذه الدراسة ، ممن أبدوا مثل هذه المشاعر المتطرفة نحو الضعفاء والمحرومين ، هم من مراهق « الشكل الثاني » الممثل للمراهقة المحرومة المنطوية ، وبعضهم من المراهقين في أشكال المراهقة « غير المتوافقة » الأخرى .

ولبعض المراهقين — من الممعنين في سوء التكيف — شطحات خيالية ، يهربون بها من الواقع الفعلي الذين عجزوا عن مواجهته ، إلى بناء التنظيمات والتشكيلات التي تقارب صور الأحلام . . من ذلك ما يرويه أحد هؤلاء المراهقين عن محاولته مع زملاء له لتكوين حزب جديد ، أقسموا يمين الإخلاص له على قنة أحد الجبال ، ودعوا إليه وشرعوا له اللوائح والقوانين . . ثم خمدت هذه الفورة بعد قليل ! ومن ذلك أيضاً ما يرويه مراهق آخر من أنه سجل في مذكراته ، الدعوة إلى دين جديد أسماه (الهيلولية) ! . . يهدف إلى التحرر الجنسي الخالي من القيود ومن

« المؤثرات الاجتماعية التخيلية » ويكون من مبادئه « أن يعيش المرء سعيداً إلى الأبد » ! ودعوته هذه لا تحتاج إلى تعليق فى توضيح أسبابها !

ولئن كان لبعض المراهقين ظروفهم النفسية ودوافعهم الخاصة التى تحملهم على نقد الأوضاع المحيطة بهم ومحاولة تغييرها ، فإن هناك كذلك الأسباب الأخرى ، الأهم ، فى تفسير هذا السلوك فى المراهقة .

ومن هذه الأسباب ، التفتح الذهنى واقتراب المراهق من النضج العقلى . فمن شأن ذلك تزايد اهتمام المراهق بالظواهر الاجتماعية التى تحيط به ، وببحث مذاهب الناس فى الحياة ، والقيم الأخلاقية التى تسود المجتمع ، وسائر القضايا الدينية والسياسية والاجتماعية . ولاشك أن المراهق واجد فى كثير من الأوضاع المحيطة به ما يحمله على التفكير والتأمل ، ويستدعى المناقشة والتساؤل . ولاشك أيضاً فى أنه يرفض — مع ما بلغه من النمو العقلى — أن يأخذ الأمور قضية مسلمة أو أن يتقبلها تقبله السابق لها .

كذلك فإن التطورات السريعة التى يمر بها النمو الجسمى والغددى فى المراهقة ، تؤدى إلى الإرهاص فى عواطف المراهقين وإلى حساسيتهم الانفعالية الزائدة . فتتميز المراهقة لذلك بفيض غزير من العاطفة والحماس ، وتمتزج هذه العاطفة أحياناً بالتأثيرات الدينية الروحية فى بيئات المراهقين ، فيتجه منها مجرى عريض نحو حب البشرية جمعاء ، ونحو حب الفضيلة والحق والجمال ، والتعلق بالاهتمامات الإنسانية العليا . . وتزخر بكل ذلك كتابات المراهقين ، وينعكس أيضاً على ما يقرأون وما يدعون إليه ، بالقول أو بالفعل !